جميل صدقي الزهاوي

1936 - 1863

يحار الكاتب من أين يدخل في عالم الشاعر العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي. فهو قبل أن يصبح شاعراً كان عالماً وكان فيلسوفاً. وكان رجل دولة تنقل في في مناصب مختلفة في الدولة في مراحل مختلفة من حياته في ظل السلطنة العثمانية، ثمّ في ظل الحكم الوطني في العراق بقرار من السلطات كلها، دخولاً وخروجاً متواصلين. وإذ أصبح شاعراً في فترة لاحقة من شبابه، دخل بقوة في مجال الشعر، وصار بالتدريج واحداً من كبار شعراء عصره في العراق وفي العالم العربي. وكانت قصائده تمتلئ بها صحف ومجلات العراق ولبنان ومصر.

وأعترف أنني حين بدأت البحث في المراجع هن شاعرنا الكبير فوجئت بأن كل الذين اقتحموا ميدان الكتابة عنه واجههم السؤال ذاته الذي واجهني، السؤال من أي باب يمكن للكاتب أن يدخل في عوالم هذا العبقري المتعددة عوالمه. لكنني صممت أن أدخل في عالم الشعر خصوصاً، وأن أترك له هو أن يتحدث عن عوالمه كلها بما فيها عالمه الشعري. واخترت أن أتركه يتحدث هو أولاً عن سيرته التي كتب ملخصاً عنها بقلمه تسهيلاً للباحثين عن مفاصل هذه السيرة في تشعباتها. وكان السبب في اختياري هذا هو الدقة في تحديد مسار حياته بقلمه، حتى لا يقع أي خطأ أو أي التباس. واستناداً إلى هذه السيرة ذاتها وانطلاقاً منها يصبح الحديث عن شعره أقرب إلى فهم العوامل والعناصر التي حكمت قراره في كتابة الشعر كصيغة نهائية للقسم الأعظم من حياته حتى الرمق الأخير. وهذا بالضبط ما كنت قد لجأت إليه في سرد سيرة الشاعر محمد الصافي النجفي. إذ اخترت سيرته التي كتبها بقلمه.

لنبدأ إذن بالنص الذي يقدم فيه الزهاوي ملخصاً لترجمة حياته:

"ولدت في بغداد من أبوين كرديين في يوم الأربعاء 18 حزيران سنة 1863. أما أبي فهو مفتي العراق محمد فيضي الزهاوي الكبير. ويرجع نسبه إلى أمراء السليمانية (البابان). وهؤلاء ينتمون في نسبهم إلى خالد بن الوليد. وشهرة والدي الزهاوي هي لأن أباه (جدي) أحمد بك هاجر إلى زهاو (بلدة ملحقة في يومنا هذا بإيران) وسكنها سنين وتزوج فيها سيدة زهاوية فولدت له أبي. فلما رجع إلى السليمانية مع نجله (أبي) اشتهر أبي بالزهاوي. وأما أمي فاسمها بيروز. وهي سيد عصبية المزاج من أسرة كردية وجيهة (ولعلي ورثت العصبية منها). وكنت في صباي أدعى بالمجنون لحركاتي غير المألوفة وفي شبابي الطائش لخفتي وإغالي في اللهو، وفي كهولتي بالجريء لمقاومتي الاستبداد، وفي شيخوختي بالزنديق لمجاهرتي بآرائي الحرة الفلسفية المخالفة لآراء الجمهور. تعلمت كثيراً من علوم الأولين فلم يشبع عقلي، وكثيراً من علوم الغربيين فيما ترجم إلى التركية والعربية على أساتذة خصوصيين فولعت بها ودأبت على المطالعة وتوسعت فيها. وكان أول نظمي بالفارسية ثم بالعربية، ونشرت لي المجلات والصحف في مصر وبيروت والشام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة. وأنا أول من دافع عن المرأة في العراق، وأول من قاوم الاستبداد في عهد السلطان عبد الحميد، وأول من نظم القصائد القصصية، وأول من تمرد على القديم وعن الجديد وقاوم التعصب.

ولم أتعلم لسوء الحظ لغة غربية. وقد تزوجت في سن الثلاثين بالآنسة زكية هانم وعمرها يومئذ 16 سنة. وهي من بيت كردي شريف. ولم يولد لنا ولد. وقد خدمتني في شيخوختي بإخلاص وأمانة.

عينتني الحكومة التركية في أول شبابي عضواً في مجلس المعارف ببغداد ثم مديراً لمطبعة الولاية ومحرراً للقسم العربي من جريدتها الرسمية "الزوراء"، ثم عضواً في محكمة

الاستئناف. وسافرت بعد سنوات إلى مصر فمكثت فيها أسبوعاً ثم أبحرت إلى إسلامبول عاصمة البلاد العثمانية يومئذ.

بعد سنة أرسلتني الحكومة بإرادة سلطانية إلى اليمن واعظاً عاماً وعضواً في الجمعية الإصلاحية وبقيت فيها 9 أشهر. ثم رجعت إلى العاصمة بإرادة سنية. واجتمعت في هذه المرة بالترك الأحرار وجاهرت بالسخط على نظام الحكم. ونظمت في ذلك عدة قصائد نشرت في جرائد مصر بتوقيع مستعار. وأصبحت معقباً بالجواسيس. وكانت النهاية أن أبعدني السلطان إلى بلادي براتب شهري قدره 15 جنيه.

وأكثر شعري الذي كنت نظمته قبل الدستور العثماني نشر في ديواني الاول "الكلم المنظوم". ولما أعلن الدستور العثماني عدت إلى العاصمة فعينتني الحكومة الدستورية أستاذاً للفلسفة الإسلامية وأستاذاً للآداب العربية في جامعتها. وقد نشرت دروسي التي كنت ألقيها في الفلسفة بمجموعة دار الفنون باللغة التركية. ثم اشتد بي المرض فألجأني إلى الرجوع إلى بغداد أستاذاً للقانون المدني في كلية الحقوق.

وفي ولاية ناظم باشا كانت جريدة "المؤيد" في مصر قد نشرت لي مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون ويقذفونني بالسب واللعن. والمهذبون من الكتاب في مصر وسوريا ناصرونني. ولكن التعصب في بغداد كان يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالي غير عزلي من وظيفتي إرضاء للرأي العام. ثم جاء جمال باشا والياً عوضاً عن ناظم باشا فأرجعني إلى وظيفتي.

ثم انتخبت نائباً عن لواء المنتفق في البرلمان العثماني فحضرت جلساته في إسلامبول ثم انفسخ المجلس فعدت إلى بغداد. وانتخبت في بغداد نائباً عنها. فذهبت إليها ثانية وألقيت الخطب أدافع عن حقوق العراق. وقامت حولي الضجات فلم أبال. ثم

بعد سنتين أو ثلاثة وقعت الواقعة وأعلنت الحرب العظمى واحتلت الجنود الإنكليزية بغداد وأرادت أن تأخذني إلى الهند أسيراً. ولكنني أبرزت ورقة فيها صراحة بأن مكاتب جريدة المقطم المصرية (وكانت هذه الجريدة موالية للإنكليز) فأفرجوا عني.

وعينت في عهد الاحتلال عضواً في اللجنة التي تدير أمور المعارف ثم رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية. فعرّبت 17 قانوناً بين صغير وكبير. ثم ألغيت اللجنة وجاء جلالة الملك فيصل الأول المعظم وتوج ملكاً في العراق واحتفل به في بغداد احتفالات باهرة كنت المغرد فيها.

ثم هاجرت إلى سوريا فمصر. وأقيمت لي في الشام وبيروت ومصر عدة حفلات. ونشرت لي في الشام وبيروت ست قصائد وفي مصر أكثر من ثلاثين قصيدة بعد أن أعلن الدستور في العراق رجعت إليه فعينني جلالة الملك عضواً في مجلس الشيوخ، ثم بعد 4 سنوات خرجت من المجلس بالاقتراع الذي كان قد نص عليه الدستور العراقي. ثم في "السياسة الأسبوعية" (مجلة كانت تنشر في مصر) كل أسبوع قصيدة فعطلتها حكومة مصر وقد بلغت السبعين من عمري وبان علي الهرم وشلت أصابع قدمي اليسرى منذ أكثر من عشرين سنة وما زالت الأوجاع العصبية تنتابني وتبرح بي.

وأما مؤلفاتي فأولها رسالة باسم "الكائنات" في الفلسفة أبديت فيها آرائي الحرة في المكان الزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية وقد طبعت في مطبعة المقتطف بمصر ونفذت نسخها. والثاني رسالة في سباق الخيل أودعتها تجاربي الخاصة في ركب الخيل وقد طبعت في مجلة الهلال بمصر. والثالث رسالة في "الخط الجديد" نشرها "المقتطف" بمصر ثم في شكل رسالة وقد نفذت نسخها. وهذا الخط لا يشبه الخط العربي ولا الحروف اللاتينية. ويقدر أن يتعلمه التلميذ في أسبوع. وهو جميل ويكتب متصلاً من اليمين إلى

اليسار ومن اليسار إلى اليمين ويطبع مقطعاً. وفيه تسهيل للطباعة. فإن كل حرف منه إذا قلب كان حرفاً آخرمن الحروف الأبجدية. فقام كل حرف بوظيفة حرفين. وتعلم ما في ذلك من القتصاد ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطاً عاماً لجميع اللغات. والرابع هو دروسي الفلسفية التي كنت ألقيها على تلاميذي في جامعة الأستانة. والخامس ديواني "الكلم المظلوم" وقد نشر في بيروت بأول سنة للدستور العثماني ونفذت نسخه. والسادس هو "الفجر الصادق" في الرد على الوهابية. وقد طبع في مصر قبل الدستور العثماني ونفذت نسخه. والسابع رسالة "الجاذبية وتعليلها". وقد طبعت في بغداد بعد رجوعي إليها أستاذاً في كلية الحقوق. والثامن هو ديواني الذي طبع بمصر باسم "ديوان الزهاوي". والتاسع هو "المجمل مما أرى" رسائل فلسفية أودعتها آرائي التي خالفت فيها علماء عصري. وبسطت فيها الناموس الدوري العام وعللت الجاذبية العامة بالدفع العام للأثير الجاري إلى المادة طلباً للموازنة وقد طبعت بمصر قبل ثماني سنوات. والعاشر رسال في لعبة الداما تحتوي على 1599 لعبة، 500 منها لأصحابها و 1000 من مستنبطاتي. وهذه لم تطبع بعد. والحادي عشر ديوان رباعياتي. وقد طبع في بيروت قبل ثماني سنوات طبعاً رديئاً ومغلوطاً فيه. والثاني عشر ديواني الذي طبع ببغداد قبل 4 سنوات باسم "اللباب" وأضفت إليه 1800 رباعية من رباعياتي منقحة صحيحة، وكثيراً من قصائدي المنشورة في "ديوان الزهاوي" منقحة، وما نظمته من القصائد بعده. والثالث عشر "ترجمة رباعيات الخيام" وقد ترجمتها رأساً من الفارسية نثراً ونظماً بعد إثبات الأصل الفارسي في الصدر. وهي 130 رباعية. والرابع عشر رواية تمثيلية باسم "ليلى وسمير" طبعت في بغداد قبل سنتين ونفذت نسخها. والخامس عشر رسالة في تسهيل القواعد العربية لم تنشر بعد. والسادس عشر هو ما نظمته بعد قصائد "اللباب" باسم "الأوشال". وقد نشرت قصائده في مجلات مصر وصحفها والشام وبيروت وبغداد. ولم تنشر بعد في شكل ديوان. والسابع عشر هو ديوان

"نزغات الشيطان". وقصائد هذا الديوان لم تنشر بعد في المجلات والجرائد. وسوف تنشر بعد موتي لأنها تصادم آراء المتعصبين وتثيرهم إثارة لا أحمد عقباها. والثامن عشر هي قصيدتي "ثورة في الجحيم" وعدد أبياتها 433 وقد نشرت في العام الماضي في مجلة "الدهور". وكانت يومئذ تصدر في بيروت. وقد قامت حولها ضجة كبيرة. وقد سبّني بسببها بعض المتعصبين على المنابر في خطبة صلاة الجمعة. ونفذت بعد قليل من الزمن نسخها".

يقدم هذا النص بقلم الزهاوي إجابات واضحة على كل ما يمكن أن يرد في ذهن الكاتب والقارئ من أسئلة حول سيرة شاعرنا بتفاصيلها، ومن ضمنها ما يتصل بعالم شعره والصيغ التي اختارها له. ويبقى على الباحث عن شعره أن يقرأ دواوينه. إلا أنني لن أغامر في البحث الذي هو من اختصاص النقاد. وحتى في هذا الموضوع بالذات وفر عليّ الزهاوي تلك المغامرة في النص الذي وضعه تحديداً لمفهومه للشعر، وتحديداً للطريقة التي اختارها لنظم الشعر. وقد عثرت على هذا النص في كتاب ضخم وضع له مقدمة عميقة ومطولة عبد الرزاق الهلالي. كما وضع الزهاوي ذاته مقدمة بعنوان "نزعتي في الشعر" أقدمها هنا بنصها الكامل بدلاً من مغامرتي في البحث حول شعره الذي هو من اختصاص النقاد. يقول الزهاوي:

الشعر هو ما ينظمه الشاعر من إحساس تجيش في نفسه بأوزان موسيقية فيهز به السامع:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقاً أن يقال له شعر

ولا أرى للشعر قواعد. بل هو فوق القواعد حرّ لا يتقيد بالسلاسل والأغلال. وهو أشبه بالأحياء في اتباعه سنة النشوء والارتقاء, يتجدد –وأحرى به أن يتجدد– بحسب

الزمان، ويرتقي من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب. وأنزع أن أمشي بشعري في سبيل الحياة الطبيعية متجنباً المبالغات وكل ما ليس حقيقياً، وما أخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التي ورثتها الأبناء من الآباء. فيقول ما يشعربه هو، ولا يشعر به آباؤه. فكلما رجعت إلى نفسي أحيد به عن الطريق الذي يمشي عليه غيري معتقداً أن الطبيعة أولى بالتقليد:

وما زلت في جوّ من الفكر طائراً ومن عادتي أن لا أطير مع السرب

وقد جردته ما استطعت من الصناعات اللفظية والخيالات الباطلة. وحرصت على أن يكون منطبقاً على الواقع، خلواً من الإغراق، ماشياً مع العصر. فحسبي أن توحي الطبيعة إليّ فأقول ما أقول–:

حبذا الشعر إذا كا ن مثيراً للشعور

وإذا كان نزيهـاً كأغاريد الزهور

ولا أرى مانعاً من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من القصيدة عند الانتقال من فصل إلى آخر كما فعلت في عدة قصائد، لا دافعاً لملل السامع من سماع القافية الواحدة في كل بيت كما يدعي بعضهم، – فتلك حجة من يعجز عن إجادتها، وإلا لملّ الناظر وجوه الناس لوجود أنف بارز في وسط كل وجه– بل راحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها، فإن الاتيان بها متمكنة ليس في قدرة كل شاعر، قال عويف القوافي:

سأكذب من قد كان يزعم أنني إذا قلت قولاً لا أجيد القوافيا

وأجيز للشاعر أن ينظم على أي وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو غيرها.

والشعر الحر شجاع لا يهاب في الصدق لومة اللائمين، إلا إذا أحسّ بالمهلكة فعندئذ يسكت أو يكذب، قال شيخ المعرة:

أصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة وعند ذلك فاقعد كاذباً وقم

ونزّاع إلى التجدد، يثور على النظام ويتمرد عل السلطان الكاذب، يريد كل يوم أن يمرق عن العادات ويمزق أطمارها البالية كالفراشة التي تخلع شرنقتها لتبرز في ثوب أجمل محبر بألوان السماء.

الجديد الجديد هو أحسن ما تنزع إليه النفس الوثابة، ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما الناظر:

سئمت كل قديم عرفته في حياتي

إن كان عندك شيء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربي شعراء الغرب في شعورهم، فإن لكل أمة شعوراً خاصاً بها لا تحسّ به أمة أخرى كالموسيقى. ألم تر أن كلاً من الشعر العربي والشعر الغربي إذا ترجم إلى الآخر فقد كثيراً من روعته، اللهم إلا إذا تصرف فيه المترجم فقربه م شعور قومه أو كان الشعور الذي يترجمه مشتركاً بين الأمتين.

ولا أقول بأن يجمد الشاعر العربي على ما هو عليه الشعر اليوم، بل الأحجى أن يترقى شعر كل أمة في سبيله، ومن المستحيل أن يصدح العندليب صدح الحمامة أو تغرد الحمامة تغريد العندليب.

ولا يسوغ للشاعر العربي مخالفة قواعد اللغة، فإن الإعاب دليل المعاني، كما لا يخالف الشاعر الغربي قواعد لغته. وللشاعر الفحل أن يولد في اللغة إذا مست الحاجة كلمات لم يأت بها من جاء قبله، فتغني بذلك اللغة. واللغة التي لا يتولد فيها كل سنة عدد من الكلمات ولا يموت كذلك عدد هي ميتة.

ولقد وجدت الذين يمارون الأدب ثلاثة أقسام: الاول وهو الأكثر عدداً من لا يستحسن من الشعر إلا ما ألفه من القديم وانتقل إليه بالوراثة من العصور الماضية فلا يستحب فيه إلا المبالغات والخروج عن حدود الطبيعة، وإذا خلا الشعر من استعارة أو مجاز فلا يعده شعراً، والشعراء المسايرون للجمهور هم شعراء هذا القسم ينالون منه حظوة منهم. والثاني هو التشرب مخه من الأدب الغربي لا ينزع إلى الشعر العربي إلا إذا كان على نسق ما يقوله شعراء الغرب، جاهلاً أن الشعور يختلف باختلاف الأمم وإن ما تحسّ به أمة لا تحس به أخرى كما تقدم، فمثل هذا قد خرج من نفسية قومه والمدمج في غيرهم. والثالث هو الأقل عدداً يسير مع رقي العلم جنباً إلى جنب، ويستحب الشعر خلواً من المبالغات منطبقاً على الطبيعة، مع المحافظة على الشعور العربي الذي هو قوام شخصيته١، وأمثال هذا أصواتهم تضيع في ضوضاء القسم الأول الذي وقف، ولم يتبع خطوات العلم،محافظاً على القديم البالي.

وأكثر الناس لا يحكم بجود الشعر أو رداءته إلا بما يتلقن من غيره، فهو إذا سمع تحسيناً له استحسنه أو تقبيحاً استقبحه. والأخلق أن لا ينتظر الذي له نزعة إلى التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله، إذا كان ذلك الجمهور منحطاً قد تعود القديم فهو في كل وقت محافظ عليه ساخط عل ما يأتي به الخارقون للقواعد المقرر، الناكبون عن الطريق

الذي مشى عليه الأسلاف، الكافرون بالأوثان التي عبدها هو وآباؤه الأولون، والزمان وحده الحكم في تعيين درجته.

والشاعر الذي يساير شعور الناس فيما ينظم متوخياً إقبالهم على شعره ينال ما يتوخاه ما بقي الشعب جامداً في مكانه لا يتزحزح عنه، أما إذا تقدم فإن شعره يموت ويأخذ مكانه ال شاعر الذي يتجدد مع جيله، ويقى هذا مسايراً له إلى أن يتقدم ال جيل فيموت شعره كالأول ويقوم مقامه غيره

أما شاعر الأجيال فهذا لا يموت شعره لأنه يبنيه على الحقائق الخالدة ومثل هذا قليل، وهو في الغالب يسبق جيله، ولا أراه مستفيداً من المستقبل الذي يجمع أهله على إكباره، لأنه يكون يومئذ تحت أطباق الثرى ميتاً لا يسمع هتاف الهاتفين له.

والنقد إن لم يكن عن علم وإخلاص فهو حقد. أما الذين ينقدون الشعر من حيث عدم انطباقه على الواقع أو قلة روعته فهم في الغالب على هدى. أما الذين ينقدونه من حيث أنه مسبوق إليه فهم في أكثر المرات في ضلال، لأن الشاعر إذا وصف الحادة أو روى قصة فلا مندوحة له من ذكر أشياء قد يكون غيره سبقه إلى بعضها في مثل موقفه.

وكثير من المعاني مشترك لا يختص به شاعر دون آخر، فمن أجاد في نظمه فهو أحق به من غيره. وهناك حقائق علمية ونواميس طبيعية قداكتشفها أفراد من العلماء، فإذا بنى شاعر شعره على بعض هذه الحقائق فمن الحيف أن يوصم بالأخذ، وأي ترتيب على من يبني القول على قرره العلم، وهل التقدم إلا اتباع العلم في خطواته.

وقد يعلق بذهن الشاعر شكر من بيت سمعه لمتقدم فيأتي به بعد سنين في تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام ذلك وهو ناس أنه يقول، فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة. ولا

مثل الحياة التي يقضيها الشاعر بين الجاهلين يروم الحاقد منهم أن يشفي غليله بالتحامل عليه أو يكسب شهرة من وراء نقده مستفيداً من جهل القوم، وجزاء هؤلاء نقدهم السخيف الذي يسجلون به العار على أنفسهم وهم لا يدرون.

هناك في بغداد على ضفة دجلةسماء صافية زرقاء تلمع في ليلها النجوم فرادى وأزواجاً وركاماً، وأرض أخضر أديمها هي منبت جسدي وعقلي، وأصحاب يوالون، وأعداء يناوئون، وجهاد مستمر، وآمال بيض، ويأس أسود، وفساد في النظام، وعادات سيئة تضر بالمجتمع، ونفس لي حرة لا تقيم على الضيم، كل ذلك قد أنطقني شعراً هو شعور كان يجيش في نفسي قبل أن أنطق به.

غنّيت لأبناء وطني أريد أيقاظهم، فلما فتحوا عيونهم شتموني، ثم غنيبت، فأخذوا ينظرون إليّ شزراً، ثم غنيت فابتسموا لي، ثم هتفوا وبقي فيهم من يشتم، وغنيت وسأغني إلى أن يسكتني الموت. وسوف تبقى بعدي كلماتي معربة عن شعوري وما كابدته في حياتي من شقاء واضطهادا، فهي دموع ذرفتها براءتي على الطرس ناطقة بآلامي، وهي خليقة بأن تذرف من عيون قارئها دمعة هي كل جزائي من نظمها.

وما المنشور في هذا الديوان كل ما نظمته من القريض، بل هو أكثر من الثلث وأقل من النصف. ولا هو أحسن ما قلته، بل هناك قسم ليس هو دونه أدلت نشره إلى أن تسمح الظروف، منه "النزعات" و"الرباعيات". وقد بوشر طبع قسم كبير من الأ×يرة في بيروت بسعي بعض أنصار الأدب.

وقد يتكرر عندي المعنى الواحد في بيتين أو أكثر، ذلك لقلة حفظي ما قلته أو حباً بالمعنى وحرصاً على طلب الإجادة في نظمه، ولا ضير من ذلك على الأدب فإن الروض ينبت زهراً مختلف اللون والرائحة وزهراً متشابهاً.

وربما عرف المطالع من قصيدي حالة بلادي السياسية ودرجتها من الرقي في السنين التي عشت فيها وعرف عن حياتي ما لم يعرفه من التراجم المطولة.

وما أنا مادح لشعري، غير أني أعتقد أنه إذا صادف قلباً ذا شجون مدفونة فهو يثيرها. ولا أدعي أنني أجدت بل غاية ما هنالك أني قلت فحسب. وإذا ألفى أحد فيها ما يمس شعوره أو معتقده فلا يغضبن عليّ فإني لم أتعمد إيلامه وطالما سمعت ما يخالف رأيي ولم أتذمر ولم أجد على كاتبه.

وقد نظمت قصائدي في ظروف مختلفة وأوقات مختلفة وأحوال نفسية مختلفة، فلا غرو إذا اختلفت في الشعور والمرتبة. وما أردت أن أكسب به مالاً أو إتزلف إلى أحد، فما رثيت إلا من كان صديقي، مستثنياً شيخ الأدب اسماعيل باشا صبري فإن أسفت لوفاته فرثيته على غير معرفة لي به. ولا حمد إلا من ظننت فيه خيراً للبلاد، وربما خاب ظني في بعضهم فكففت:

قد مدحت الذين لم يستحقوا مدائحي

أحسبوها على ضرورتها من قبائحي

وقبل أن أدخل في تقديم بعض النماذج من شعره التي استقيتها من ذلك الكتاب الضخم الآنف ذكره ومن بعض المقالات التي كتبت عنه، أود أن أقدم بعض المقاطع من مقال نشره أحمد حسن الزيات مؤسس مجلة "الرسالة المصرية" نشره في الرسالة مسلسلاً في ثلاثة أعداد، في صيغة تأبين له بعد رحيله. يقول الزيات في هذا النص: "كان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور. ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد وحس مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهو به

والتيه يذهب به، فيحب الثناء ويبغض النقد. فهو لفَرَقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد. ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالأي إلى التطرف. ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة. والزهاوي بعد هذا وفوق هذا كان رسولاً من رسل الفكرة الإنسانية، وبطلاً من أبطال النهضة العربية. كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصداؤها الموقظة على ربوات بردى، وخمائل النيل، وسواحل المغرب. وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف، ثم تسعى لتعود أمة كما كانت وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون".